سورية: الربيع الفلسطينيّ

محمد نجاتي طيّارة

مَنْ يتابع فضاءَ الشارع السوريّ لا بدّ أن يلاحظ المكانةَ المحوريّةَ والطاغية للموضوع الفلسطينيّ فيه. ولا يعود ذلك إلى زخم الوجدان العروبيّ فحسب، كما هو معروف عن سورية، بل أيضًا لكون سورية قد شاركتْ قسمَها الجنوبيَّ فلسطينَ، ثم دولَ ما اصطُلح على تسميته بدول المواجهة، بأقساط متكررة من الخسائر الناجمة عن الاعتداءات الإسرائيلية، فكان لها نصيبُها من لاجئي ١٩٤٨(ما يقارب الـ ٤٠٠ ألف) ونازحي ١٩٦٧ (أكثر من ١٥٠ ألفًا). وما زالت سوريا تتلقّى التهديداتِ والضغوطَ، بل والضرباتِ العسكريّةَ أيضًا، على الأقلّ في خاصرتها اللبنانيّة مؤخّرًا. ومن هنا كان استنزافُ مخصّصاتِ دفاعِها معظمَ ناتجها القوميّ. ولذلك كان الموضوعُ الفلسطينيُّ مفتاحَ الحياة السياسيّة السوريّة بأحزابها ونُخبها، والبندَ الأولَ على جدول أعمال جميع حكوماتها المتعاقبة منذ الاستقلال.

منذ عقود، يمكن القول إنّ هذه المكانة المحوريّة قد تراجعتْ وأصابها ما أصاب الشارعَ العربيَّ من خمود وانكماش. وهذا لا يعود فقط إلى سيادة لغة الواقعيّة والسلام وانتشار النزعة الاستهلاكيّة، التي بدأتْ بعد الانتصارات التحريكيّة لحرب تشرين، بل يعود أيضًا إلى أسباب بنيويّة عميقة تتعلق باستقرار النظام السوريّ وتكوُّن سلطته المركزيّة ذاتِ الطابع الأبويّ، التي انطلقتْ من حالة الطوارئ المكرَّسة إلى إعادة إنتاج الدولة والمجتمع في نظام كلّيٍّ من الأجهزة والمنظمات الشعبيّة المتوَّجة بجبهة وطنيّة تقدُّميّة وحزب قائد. ولم يكن لعبور هذه السلطةِ المركزيّةِ العديدَ من الأزمات الداخليّة (٧٩ ـ ٨٠، ٨٢،...) والخارجيّة (الحرب الأهليّة اللبنانيّة، الضربة الإسرائيليّة في عام ١٩٨٢، المشاركة في حرب الخليج الثانية) إلا فضلُ تمتينِ الطابع العسكريّ وتغليبِ «الدولة الأمنيّة،» على حدّ تعبيرٍ مفضّلٍ للطيّب تيزيني، بحيث هيمن هذا الطابعُ على التعبيرات المستقلة والجنينيّة للمجتمع المدنيّ، وكرَّسَ طويلاً غيابَ الشارع السوريّ الذي كان يغلي بالحركة لسنوات خلت. وكان من بين نتائج ذلك عزلةُ الفرد السوريّ، وانسحابُه الدفاعيّ إلى أصوليّات متعدّدة، عائليّةٍ وطائفيّةٍ وعقائديّةٍ، في ظلّ دورات اقتصاديّة متخبّطة بين اقتصاد السوق واقتصاد الدولة ـ هذه الدولة التي لم تستفدْ براغماتيَّتُها المشهودةُ من التحولات العالميّة وتيّاراتها الجديدة إلاّ بما يَدْعم قدرتَها على الطَّفْو والبقاء.

صحيح أنّه لا يُمْكن شارعًا أو مجتمعًا أن يغيب غيابًا مطلقًا؛ وهذا ما كان يَحْدث فعلاً بين فترة وأخرى في الشارع السوريّ، نزوعًا أو ردّاً انفعاليّاً على أحداث معينة، كانفجار مظاهرة المليون ونصف المليون منذ سنوات في دمشق وتحطيمِها للسفارة الأميركية ردّاً على أحد الاعتداءات الكبرى على العراق، وغيرِها من التعبيرات التي يُمْكن إدراجُ منتديات ربيع سوريّة القصير لعام ٢٠٠١ في إطارها. لكنّ من الصحيح أيضًا القولَ: إنّ ذلك كله كان موقّتًا وعابرًا، ولا يُمْكن إدراجُه في إطار مصطلح «الشارع» كحركة مجتمعيّة مدنيّة أو كتعبير جماهيريّ مستمرّ وموّار «بالحركة والنضال» حسب مصطلحات الستينيّات. وهنا لا يفوتنا القولُ إنّ التعبيرات المنظّمة والمعلّبة للموظّفين والعمّال ولباقي قطاعات الدولة وأجهزتها المختلفة، من مسيرات البيْعة والتأييد إلى مسيرات الاستنكار، هي مسألةٌ لا تتوفّر فيها أدنى علاقة بالمصطلحيْن المذكوريْن.

ما يحدث اليومَ في سوريا شيء مختلف لا يمكن إخضاعُه للتصنيفات التقليديّة. فهناك جديد في الشارع السوريّ، فيه العديدُ من الظواهر العفويّة الجماهيريّة، فضلاً عن العديد من الظواهر المجتمعيّة المدنيّة المنظَّمة. وبين هذا وذاك ثمّة محاولاتٌ ومشاريعُ مفتوحة ومركّبة من المبادرة والعفويّة والتنظيم، وكلُّ ذلك في إطار عودة المكانة المحوريّة للموضوع الفلسطينيّ إلى الشارع السوريّ.

فمنذ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ تُمكن ملاحظةُ انشغالات مجتمعيّة سوريّة عديدة بدعم الانتفاضة الفلسطينيّة. ومع انفجار الانتفاضة الثانية حفلتْ هذه الانشغالاتُ بأنشطة متنوعة، بدءًا بالمهرجانات التضامنيّة والمحاضرات والندوات، ومرورًا بجمع التبرعات، وانتهاءً بتشكيل «اللجنة الوطنيّة العليا لدعم الانتفاضة،» التي تمَّ تفصيلُها على مثال «الجبهة الوطنيّة التقدُّميّة» مع بعض التجميلات ـ الأمرُ الذي دعا الطيّب تيزيني وآخرين إلى الانسحاب من هيئتها العليا بعد يأسهم من محاولة تطويرها إلى مشروع شعبيّ. لكنْ مع بدء

سورية: الربيع الفلسطينيّ

الهجمة الصهيونيّة الأخيرة على الشعب الفلسطينيّ، انفجرتْ دمشقُ والعديدُ من المحافظات والبلدات السوريّة الطَرَفيّة بما لا يسعنا تسميتُه إلا بـ «ربيع سورية الفلسطينيّ.»

لم يكن ممكنًا تفتُّحُ هذا الربيع بلا بذور أو مناخ. فإذا كان الموضوعُ الفلسطينيُّ حاضرًا دومًا في سوريّة، فإنّ المسألة تتعلّق أيضًا بالمناخ المنفتح ـ إلى هذا الحدّ أو ذاك ـ الذي أتاحته الإصلاحاتُ السوريّةُ البطيئةُ لكن الحثيثةُ، والمعبِّرةُ عن رؤية القيادة الجديدة الشابّة للتطوير والتحديث في ضوء الاستمراريّة. وتتعلّق المسألة أيضًا بتراجع القبضة الأمنيّة من مجال القهر والعسف إلى مجال الحراسة والمراقبة، بحسب ما عبّر ذاتَ مرّةٍ باتريك سيل. كما غضّت السلطاتُ الطَّرْفَ عن نشاط بعض التعبيرات المدنيّة والسياسيّة للمثقفين والأحزاب المعارضة ـ مثل بيانَيْ الـ٩٩ والألف، ولجانِ إحياء المجتمع المدنيّ، ولجانِ الدفاع عن حقوق الإنسان، وجمعيةِ حقوق الإنسان، ومنتدى الأتاسي، وبياناتِ التجمُّع الوطنيّ الديموقراطيّ وغيره ـ على الرغم من تلويح بعضِ أطراف تلك السلطات بالخطوط الحمر، بل واستعدادِها لتوجيه ضربات تحذيريّة، كما في قيامها باعتقال الديمقراطيِّين العشرة في نهاية صيف ٢٠٠١، وإخضاعها النائبيْن الإصلاحيَّيْن مأمون الحمصي ورياض سيْف لمحاكمات هزيلة.

بالمحصِّلة، هناك فرضيّةُ ربيعٍ ما آخرَ في سوريّة. ونظرًا للصمت الإعلاميّ حوله، سنحاول ما أمكَنَنا تتبُّعَ مساره ميدانياً في ما يلي.

دمشق

في دمشق، بدأت البذرةُ الأولى ببلاغ صدر عن «لجان المجتمع المدنيّ» بتاريخ ٢٠٠١/١/١٦، استَعْرَضَ تجربة الحراك المدنيّ في سوريا، وأهميّةَ الحوار واختلاف الآراء في تفعيلها. وقد انطلقتْ هذه اللجان من رؤيتها لاستقلاليّة الحقل الثقافيّ في إطار جدله مع الحقل السياسيّ، وازديادِ أهميّة الثقافة الوطنيّة المقاومة بعد أحداث ١١ أيلول وانعكاساتها السلبيّة على وطننا العربيّ ـ وهو ما يتجلّى في تصعيد هجمة المشروع الصهيونيّ المدعوم أمريكيّاً ضدّ شعبنا الفلسطينيّ وانتفاضته الباسلة. ولهذا دعت «اللجان» أبناءَ الشعب السوريّ إلى المشاركة في حملات التضامن لنصرة الشعب الفلسطينيّ، أمام مبنى مقرّ الأمم المتحدة شارع أبي رمّانة، الساعة ١١ نهارًا من كل خميس، اعتبارًا من ٢٤ كانون الثاني.

وفعلاً، احتشد في المكان المشار إليه، وبدءًا من ذلك الخميس بالذات، جمهورٌ من نشطاء المجتمع المدنيّ والمثقفين المستقلّين والفنّانين، برز بينهم عبد الرحمن زهرة (أبو القاسم) وفارس الحلو ومي سكاف وأحيانًا خالد تاجا. وكان عدد المتضامنين يتراوح بين ١٥٠ و٣٠٠، من الجنسيْن، ومن أجيال متعددة، وانضمّ إليهم جمهورٌ متزايدٌ من الفلسطينيِّين. ومنذ الخميس الأول، تقدمت المشاركاتُ والمشاركين برسالة احتجاج إلى الأمين العام للأمم المتحدة، سلَّمَها باليد كُلٌّ من المشاركة د. مي الرحبي وكاتب هذه السطور، إلى السيد مسؤول البرنامج الإقليميّ للأمم المتحدة. كما رفع المشاركون رسالةً أخرى مماثلةً إلى الأمين العام للجامعة العربيّة. وأصبح تقديمُ مثل هذه الرسائل تقليدًا مستمراً باسم المشاركين في «الاعتصام.»

بعد أكثر من شهر، ظهر في المكان نفسه تجمّع آخرُ عند الساعة الثالثة، دعت إليه لجانُ العودة وناشطو الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. وأمكن التنسيقُ بين الموعديْن، فتكاثر جمهورُ المعتصمين وأصبحوا يَشْغلون معظمَ الشارع. وفي خميسٍ لاحق، بادرتْ مجموعةٌ من الشيوعيِّين السوريِّين منشقّةٌ مع قدري جميل القياديِّ السابقِ في الفصيل البكداشيّ، فدعت إلى تحشّد آخر في المكان نفسه عند السادسة مساءً. وتميّزتْ برفع راياتها الحمراء، وبأغلبيّة الجيل الشابّ بينها، وأصبحتْ توقّع لافتاتها وبياناتها باسم «لجنة متابعة تنفيذ ميثاق الشرف.»

هكذا ظهر خميسُ فلسطين في دمشق، وتحوّل إلى تقليد تضامنيّ تركّز حول الموضوع الفلسطينيّ. وأشارت الأنشطةُ التي رافقته إلى حيويّة متجدِّدة في النُّخب السورية، التي كان لجوؤها إلى مقرّ الأمم المتحدة تعبيرًا شديدَ الرمزيّة عن حاجتها إلى ظَهْرٍ يُسْنِد توقَها إلى التعبير، فضلاً عن رغبتها في كسر الصمت الإعلاميّ عن وجود الآخر ورأيه. ومن ثمّ كان من الطبيعيّ ظهورُ لافتات تحمل تواقيعَ «لجنة أُسَرِ معتقلي الرأي» و«جمعيّة حقوق الإنسان» و«التجمُّع الوطنيّ الديمقراطيّ،» طالبتْ بإطلاق سراح المعتقلين السياسيِّين،

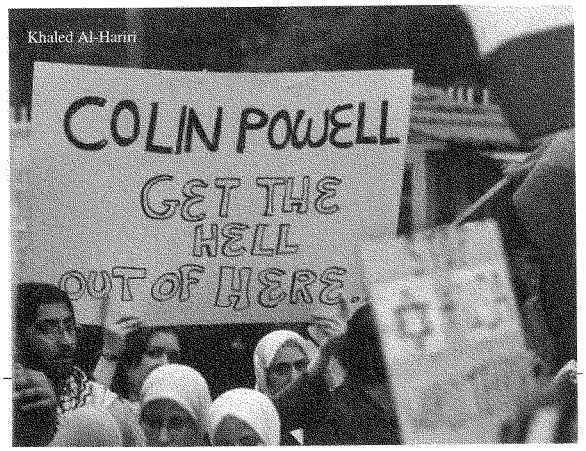

نما في الشارع الدمشقيّ مجدّدًا كره سياسة أميركا: «باول، حلّ من هنا!»

وربطتْ جميعُها بين التحرير والحريّة، وتوجّهتْ إلى المطالبة بالحريّات الديمقراطيّة سبيلاً لتعزيز الوحدة الوطنيّة ضدّ الأعداء الخارجيّين.

ولم تتوجّه رسائلُ المشاركين في الاعتصام إلى الهيئات العربيّة والدوليّة فحسب، بل تحولتْ كذلك إلى نداءاتٍ موجّهةٍ إلى الرأي العامّ والمواطنين العرب. فتَحْتَ عنوان: «لمن ندّخر الجيوش؟ إلى متى نَصْمت ونتفرّج؟» دعت في ٣/١٤ إلى تأييد النضال الوطنيّ الفلسطينيّ، وطالبت الحكوماتِ العربيّةَ بمواقف تتّفق وجسامةَ الهجوم الإسرائيليّ الحاليّ على فلسطين، وهولَ الهجوم الأميركيّ الوشيك على العراق. ولم يَفُتْها أن توجّه في اليوم نفسه رسالةً إلى الأمين العام للأمم المتحدة، منوّهةً بتصريحه الشجاع والمُنْصف قبل يومين.

ثم حدثت النقلةُ النوعيّة في الاعتصام، وذلك حين دعت «لجان المجتمع المدنيّ» إلى التحشُّد أولَ يومَي انعقاد مؤتمر القمة في بيروت. فقد تحوّل الاعتصام إلى مظاهرة من عدة آلاف، اخترقتْ شوارعَ العاصمة، وصولاً إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، حيث ألقى الفنّان فارس الحلو كلمةً مرتجلة، كما ألقى الفنّان أبو القاسم بيانًا باسم «اللجان.»

ومع انفجار الأحداث عشيّةَ انتهاء مؤتمر القمة العربيّة، تشكلتْ ميدانيّاً «لجنة تنسيق المظاهرات اليوميّة لدعم الانتفاضة الفلسطينيّة.» فبدأ عملُها في ٤/٢٩ وضمّت: معاذ حمور عن لجان المجتمع المدنيّ، وسوسن زكزك عن اتحاد الشباب الديمقراطيّ ورابطة النساء الديمقراطيات ـ الجناح الفيصليّ، ومعتز سويد عن الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وعلاء عرفات عن لجنة المتابعة، وممثّلين عن كل من «التجمُّع» ولجنتَيْ «عائدون» و«الأرض.» فدعت هذه اللجنة، في بيانات متكررة تحمل توقيعَها، إلى التظاهر والاعتصام عند الساعة السابعة يوميّاً، احتجاجًا على ما يجري، والقيام بمجموعة من الضغوط لدعم الانتفاضة وللاستعداد للمواجهة المفتوحة.

واعتبارًا من اليوم التالي أصبح الاعتصام ظاهرةً مسائيّةً يوميّةً، تحولتْ مرارًا إلى مظاهرة جماهيريّة، مختلفةِ الألوان والاتجاهات السياسية المعارضةِ أو المنشقّة أو المتململة عن الجسد السياسيّ الرسميّ السوريّ، على نحوٍ ما دلّت اللافتاتُ والأعلامُ المرفوعة. أما الهتافات فكان من الطبيعيّ أن تذهب بعيدًا في الخطاب التعبويّ، إذ عبّر بعضُها عن اليأس من الأنظمة العربية وعجزها إلى درجة الشتيمة: «يا ناس والله يا ناس، حكّام العرب أنجاس.» واستنجدتْ أخرى بأبطالنا التاريخيّين: «وين جمال وصلاح الدين، تا نحرّر فلسطين.» كما كانت هناك هتافاتٌ طالبتْ بفتح المعتقَلات وإطلاق الحريات: «لا تحرير بلا حرية»؛ «سامحينا يا فلسطين لأنّنا مكبّلين»؛ «الحريّة الحريّة للمتوارين والمعتقلين.» فضلاً عن الشعارات الغالبة لفلسطين وتأكيد خيار «ما أُخِذَ بالقوّة لا يُستردُّ بغير القوّة.» ورافقتْ ذلك كلَّه ممارساتٌ رمزيّةٌ أخرى كإحراق العلميْن الصهيونيّ والأمريكيّ.

منذ اليوم الأول، الذي صادف يومَ الأرض، حاول بعضُ المحتجين التوجُّه إلى السفارة الأميركيّة، فمنعتْهم قواتُ حفظ النظام، فأدّى ذلك إلى جرح بعض المتظاهرين واعتقالِ بعضهم الآخر ساعاتٍ محدودةً. لكنّ تلك القوات لم تذهبْ أبعدَ من ذلك، في حين اكتفت قواتُ الشرطة وعناصرُ أجهزة الأمن المختلفة بمراقبة المعتصمين، وعملتْ على قطع الشارع وحماية الممتلكات، بل تقدمتْ سياراتها المتظاهرين وأمّنتْ لهم المرورَ. وحين تمادى بعضُ المشاركين، سواء بشغبهم ضد رجال الشرطة والممتلكات العامّة، أو بإخراج التظاهرة عن أهدافها الأساسيّة، سارعتْ لجنةُ التنسيق المذكورة إلى التدخُّل والتهدئة. كما وزّعتْ «لجانُ المجتمع المدنيّ» بيانًا خاصّاً بتاريخ ٤/٥ دعت فيه المتظاهرين إلى التمسك بالأهداف الأساسيّة للتظاهرات، والحفاظِ على طابعها السِّلْميّ الذي يتنافى مع «أيّ قصد استفزازيّ ضدّ رجال الشرطة والأمن السوريّين، الذين يسمحون لنا بالتظاهر بحريّة في شوارع دمشق.» كما دعت إلى أن تعبّر هذه التظاهراتُ عن رغبات الشعب السوريّ المشتركة، وأن لا يستغلّها أيُّ طرف لأغراضه الخاصة. وأكدّت أنّها «لا تستهدف أيَّ مَرافقَ أو مؤسساتٍ عامّةٍ أو خاصّةٍ، أو هذه السفارة أو تلك، بل بناءَ موقفٍ عربيٍّ معادٍ لأميركا وسياساتها.»

وفعلاً، استقرّ الطابعُ السلميُّ للاعتصام، وأخذ أشكالاً متنوّعة من التعبير الرمزيّ، كما في حَمْلِ ما يُشْبه معرضًا لصور المأساة الفلسطينيّة، أو في كمِّ أفواهِ مجموعةٍ كبيرةٍ من الشبّان والشابات مع تقييد الأيادي بالسلاسل. وسارت التظاهراتُ باتجاه قبر صلاح الدين مرات عدّة، وباتجاه ساحة الشهبندر ومقبرة الشهداء

سورية: الربيع الفلسطيني

مرات أخرى، حيث ألقيت كلمات للدكتور سمير التقي مرةً، وللمحامي حسن عبد العظيم الناطق باسم «التجمُّع» مرارًا. وقد تميّزت كلمة الأخير مساء ٤/٢٥ بتثمينه إيجابيّةَ القيادة السوريّة من التظاهرات، ومطالبتِه بترسيخ الوحدة الوطنيّة من خلال الإفراج عن كافة معتقلي الرأي ليشاركوا في الدفاع عن فلسطين.

كما تجمّع حوالى ثلاثة آلاف معتصم، ظهيرةَ ذكرى الجلاء في ساحة التحرير، وساروا حتى الكنيسة المريميّة، متضامنين مع شعب فلسطين ومع المحاصَرين في كنيسة المهد بشكل خاصّ. وكان لافتًا حضورُ البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم راعي الكنيسة الأورثوذوكسيّة، وإلقاؤه كلمةً جامعةً ندّد فيها بالاعتداء على مهد المسيح وكنيستِه وشعبِه، مستصرِخًا ضمائرَ المسيحيِّين وأبناءَ جميع الديانات السماوية لإنقاذهم وحمايتهم.

لكنّ الاعتصام والتظاهرات المذكورة، على أهميتها، لا تَختْصر حركة الشارع الدمشقيّ، الذي نما فيه كرهُ أميركا مجدّدًا، كما حدث مع طرد القنصل الأميركيّ من مطعم، وإعلان مطعم آخر أنّ الدخول إليه غير مسموح للأميركيِّين. فهناك في كل مكان حركةٌ أو مبادرةٌ متجدِّدة. وربّما كان أبرزَ تلك الحركات أو المبادرات ما حدث في المعهديْن العالييْن للفنون المسرحيّة والموسيقيّة، حيث انطلقتْ حركةُ اعتصام عفويّة بين الطلاب منذ صباح ٤/٦، فافترشوا الرصيف وجعلوا منه، ومن سُور معهديْهم، معرضًا متنوعًا لتعبيراتهم الفوريّة: من المجسَّمات الجصيّة الضخمة والملوَّنة التي تمثِّل الشهيدَ وطفلَ الحجر والمقاومَ؛ إلى رسوم الكاريكاتُور المندِّدة بالصهيونيّة وبالحكومات العربيّة وجيوشِها وعجزها، وبينها رسومٌ لناجي العلي وعمر سواح وحميد قاروط : فمقاطعَ من قصائد لمحمود درويش ونزيه أبو عَفَش بالعربيّة والفرنسيّة. ولم يكتفِ المعتصمون بذلك، بل شكّلوا لجنةً لجمع التبرُّعات، لها طاولتُها الخاصّةُ المعلنة على جانب الرصيف، حيث جَمَعَتْ حوالى مليونيْ ليرة سوريّة حتى مساء ٤/٢٩.

وإذا كان حصرُ جميع المبادرات الدمشقيّة وعرضُها مستحيلاً، فلا بدَّ من الإشارة إلى مبادرة نسائيّة خاصة، إذ شكّلتْ مجموعةٌ كبيرةٌ من السيّدات المستقلات والناشطات في الحقل العام لجنةً ضمّت كلاً من: المخرجة نائلة الأطرش، والكاتبة والطبيبة مي الرحبي، والأستاذة سوسن رسلان، والناشرة ندى العلي. وقد قامت هذه اللّجنة بتسليم رسالة باليد إلى جميع السفارات الأجنبيّة ومكاتب المنظّمات الدوليّة في دمشق، عبّرتْ فيها عن موقف الشعب السوريّ من العدوان. وكان بارزًا توجُّهُ المجموعة إلى السفارة الأمريكيّة، فمُنِعتْ من الوصول إليها؛ وعندما سُمح لمندوبتيْن عنها بذلك لم يَخْرج لمقابلتهما سوى السكرتير الأول، فعبّرتا له المندوبتان عن غضب نساء سوريا من الموقف الأميركيّ، وسلّمتاه رسالةَ احتجاج شديدةَ اللهجة إلى الرئيس بوش. أما ذروة أعمال هذه اللجنة، فكانت إقامتَها لعشاء ومزاد خيريّ، على عشرين لوحة تبرّع بها فنّانو دمشق لدعم الانتفاضة، وذلك في فندق الميريديان مساء يوم ٤/٢٠.

حلب

في حلب كانت قد ظهرتْ، قبل أكثر من عام، «لجنةُ العمل الوطنيّ لنصرة فلسطين،» وضمّت ممثلين عن أحزاب «التجمُّع» و«اللجان» ومثقفين وشخصيّات مستقلّة سوريّة وفلسطينيّة. فأصدرتْ بياناتٍ متتابعةً، وعملتْ على تنظيم واحدة من أوائل المظاهرات المستقلّة لدعم الانتفاضة. ومنذ انفجار الأحداث الأخيرة، شاركتْ في تنظيم تظاهرات مسائيّة، ضمَّت أكثرَ من ألف مشارك ومشاركةٍ، وكانت تنطلق مساء كل اثنين من ساحة سعد الله الجابري لتجوب شوارعَ حلب الرئيسة مندِّدةً بالعدوان وبالعجز العربيّ.

حمص

في حمص، بدأ مساء السبت ٤/٦ اعتصامٌ مستقلٌّ دعا إليه ناشطو «التجمُّع» و«اللجان،» مع بعض المثقفين المستقلّين والفنّانين ـ وبخاصّةٍ شبابُ مجموعة «مدى» الفنيّة ـ إضافةً إلى مشاركة فلسطينيّة رمزيّة. ثم تحوّل هذا الاعتصام بعد أيام إلى احتجاج جماهيريّ يوميّ في مركز المدينة بمشاركة معلنة من «التجمُّع» و«لجنة المتابعة» والمنظّمات الفلسطينيّة، وتراوح عدد المشاركين فيه بين ٢٠٠ و٦٠٠. وسرعان ما أصبحتْ لهذا الاعتصام تقاليدُه الاحتفاليّةُ الوطنيّة، حيث برزتْ هتافات مثل: «داوْنْ داوْنْ يو أَسْ إي، شوفوا العرب يَعْملوا إيه»؛ «دَمّنا

محمد نجاتي طيّارة

فلسطين وتحرير الشارع العربيّ

النساء في سوريا: مشاركة نوعيّة متميّزة تستعيد دورهنّ الوطنيّ والقوميّ

برقبة أمريكا، والپاولْ راكضين عليه»: «يا عَسّاسْ ويا بَصّاصْ، العدوّ بدّو رصاصْ ونحنا بَدْنا حريّه»: «شعب مكتّف ما بيقاتل، الشعب الحرّ وحده مقاتل»؛ «يا حكّام ليش ليش، بيضلّوا نايم هالجيشْ»؛ «يا فلسطينْ ثُوري ثُوري، نحنا معاك الشعب السوري»... مع مشاركة إيقاعيّة من المحتشدين في حلقةٍ متّسعةٍ باستمرار حول الأناشيد الوطنيّة القديمة وأغنيات مجموعة «مدى.» وقد يَتْبع ذلك إحراقُ العلم الصهيونيّ. ولا يُختتم الاعتصامُ إلاّ مع إنشاد النشيد الوطنيّ، ثم ينصرف متحوّلاً إلى مظاهرة سارت يومًا إلى المخيّم، ويومًا إلى مقابل الروضة، حيث قدمتْ مجموعة المدى برنامجًا غنائيّاً خاصّاً.

أما يومُ الخميس الأول، فقد أضاف إليه لونًا متميّزًا حضورُ المفكّر العربيّ الطيّب تيزيني ابنُ المدينة، حيث قام بالمشاركة في جميع الأنشطة، ثم ألقى كلمةً مرتجلةً لاهبةً دارت حول فضل هذه المعركة في تحرير الإنسان العربيّ، واستعادةِ الشارع العربيّ لدوره ونضاليّته، الأمرُ الذي أَرْعب العدوّ والأنظمةَ معًا.

في اليوم التالي، اعتصم بعضُ المشاركين في باحة كنيسة أم الزنار، وقدّموا الشموع إلى الجمهور الخارجين من الصلاة، يدعونهم إلى المشاركة في الاحتجاج على ما يَحْصل في كنيسة المهد وفي فلسطين. فكان منظراً مهيبًا موكبُهم الذي تقدّمه ثلاثةٌ من الرهبان، بينهم الأب الزهر راعي الكنيسة ود. تيزيني والكاتب، حاملين الشموعَ، وهم يُنْشدون الأغانيَ الوطنيّةَ، عابرين الأحياءَ القديمةَ وصولاً إلى مكان الاعتصام، حيث ألقى اثنان من الرهبان كلمات مرتجلةً.

ثم تقدم الاعتصامُ خطواتٍ جديدةً لاحقًا. فبمبادرة من أحد منظّميه، تمّ علنًا، وبصورة فوريّة، تشكيلُ لجنةٍ لجمع التبرّعات لدعم الانتفاضة، ضمّت خمسةَ مواطنين من مختلف الأجيال ومن الجنسيْن، على أن تبدأ عملَها في صباح اليوم التالي بالتعاون مع الهلال الأحمر.

من جهة أخرى، خرجت ذلك النهار أيضًا مسيرةُ احتجاجٍ نسائيّة خاصة، قامت بها مشاركاتٌ من مختلف مؤسسات المجتمع المدنيّ العريقة في حمص (الهلال الأحمر، رعاية الطفولة والأمومة، الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة، السيدات الإنجيليّات، جمعيّة الرجاء، الاتحاد النسائيّ) وجابت شوارعَ مركز المدينة حاملةً لافتاتٍ فرديّةً تتضامن مع الانتفاضة وتندّد بالعدوان. وقد صرّحتْ إحدى المشاركات بأنّ هذه المسيرة المستقلة تحدث للمرة الأولى في مدينة حمص، وهي تعبّر عن مشاركة نوعيّة متميّزة لما يسمّى بسيّدات المجتمع المخمليّ، اللواتي تخلّيْن مع جماهير النساء الأخريات عن التحفُّظ النسائيّ التقليديّ، فنزلن إلى الشارع، مستعيداتٍ دورَهنّ الوطنيّ والقوميّ، وذلك بفضل الانتفاضة وتضحيات شعبنا في الأرض المحتلة.

حماه

في حماه، شهدت المدينة اعتبارًا من يوم الخميس ٢٠٠٢/٤/١١ تعبيراتِ احتجاجٍ متنوعةً ومستقلةً في السياق ذاته. فقد تجمعتْ حوالى ثلاثمئة من نخبة نساء المدينة عند الظهيرة، بينهنّ طبيباتٌ (مثل د. فداء أكرم الحوراني ود. سوسن عدي) ومهندساتٌ (مثل السيدة رندة المرعي) ومدرِّساتٌ (مثل المربّية المعروفة نجوى عوّاد) وسيِّداتُ أعمال (مثل السيدة نجود اليوسف) وربّاتُ بيوتٍ وراهبةٌ، قرب النّصب التذكاريّ في مدخل المدينة الجنوبيّة. وسارت المشاركاتُ باتجاه مركز المدينة، وهنّ يُنْشدن الأناشيدَ الوطنيّةَ والفلسطينيّةَ ويحملن لافتاتٍ فرديّة تندد بالعدوان الصهيونيّ الهمجيّ المدعوم أمريكيّاً، حيث برزتْ شعارات: «من حماه لجنين، شعب صامد لا يلين»: «أم النواعير تنادي: فلسطين يا عزّ بلادي.» وكانت المسيرة مفاجئة في جو المدينة، إذ ضمّت سيداتٍ سافراتٍ إلى جانب المحجّبات، وخرجتْ بصورة مستقلّة عن أيّ تدخُّلٍ رسميّ ـ وهما أمران غير معتادين محليّاً. كما أضافت هذه المظاهرة ميزةً أخرى إلى طابعها السلميّ والوطنيّ: فبعد توقفها أمام السرايا للترحّم على أرواح شهداء الانتفاضة بقراءة الفاتحة «وأبانا الذي في السموات،» عَبَرَتْ إلى حيّ المدينة ذي الطابع المسيحيّ، حيث لقيت تعاطفًا وتحشدًا كبيريْن. كما انضمت إليها جمهرةٌ جديدةٌ من المحتجّات، فربا عددُها على الأربعمئة مشاركة. وتابعتْ بعدَها إلى المخيم، قبل أن تتفرق وتتواعد على متابعة الاحتجاج الجماهيريّ والتنقل به بين أحياء المدينة. وهذا ما تم تنفيذُه في الاثنين التالي، الذي تميّز بحمل الشموع مساءً وبتزايد عدد المشاركات إلى ما يقارب الخمسمئة.

سورية: الربيع الفلسطيني

وبعد مظاهرة صغيرة العدد سارت صامتةً مساء السبت ٤/١٣ من حيّ المحطة إلى وسط المدينة، ودعا إليها ناشطو «التجمُّع» و«لجنة المتابعة،» خرجتْ حماه من صمتها وعزلتها بعد ظهر يوم الجمعة ١٩ /٤، حيث سارت مظاهرةُ احتجاج فلسطينيّةٌ من أمام مسجد المخيَّم، ضمت المئاتِ من الجنسيْن ومن أجيال متعددة ثم عَبَرتْ إلى مركز المدينة، قبل أن تنطلق إلى حيّ الحاضر وطريق حلب، فتزايَدَ عددُ المشاركين فيها وأصبح ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠. وقد حملتْ هذه التظاهرة مجسَّم الجامع الأقصى مع الأعلام السوريّة والفلسطينيّة، وبرز في مقدمتها المناضلُ الفلسطينيُّ المخضرم محمد سعيد طروية، وممثلو «التجمُّع» الذي رفع لافتاتٍ عديدةً حملتْ واحدةٌ منها توقيعَه، وكان منها: «لا للصمت العربيّ»؛ «أطردوا سفراءَهم من بلادنا.» أما الهتافات فقد حيّا بعضُها كلمةَ الرئيس بشّار في مؤتمر القمة، وبعضُها الآخر حيّا الفدائيّين ونادى: «ياحكّام يا ظلاّم/ الشعب العربيّ مابينام.»

مصياف

في مصياف أيضًا، خرجتْ مظاهرةٌ مستقلّة لنصرة فلسطين بعد ظهر ٤/١٤، ضمت بدايةً حوالى ١٥٠٠ مشارك ومشاركة، وسارت رافعةً أعلامَ فلسطين عبر الشوارع الرئيسة حتى الباب القبليّ والسوق، ليربو عددُها على الثلاثة آلاف وقد برز فيها ناشطو «التجمُّع» ومثقفون مستقلون وممثِّلو الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ ـ فصيل عبد المسيح. وتميّزتْ بشعارات وهتافات كان بينها: «هبّي يا رياح الأوطان/ شيعي وسني/مسلم ومسيحي/ بعثي وقومي/ ناصريّ وشيوعيّ » وتبع تلك التظاهرة اعتصامٌ نسائيٌّ خاصٌّ ومستقلّ مساءَ ٤/٢٣، ضم حوالى ٥٠٠ مشاركة من مختلف الأجيال، وتحوّلَ إلى مظاهرة سارت منددّة بالعدوان وبالعجز العربيّ.

سلميّة

كذلك في سلميّة، كانت قوى الطيف الديمقراطيّ الملتفّ حول «التجمُّع» قد شكلتْ لجنةً لدعم الانتفاضة وتحت ثقل الأحداث دعت للتظاهر نهارَ ٤/٢، فتجمَّع حوالى ١٢٠٠ مشارك ومشاركة من مختلف الأجيال، حَمَلوا هيكلاً رمزيّاً للقدس كُتب عليه: «القدس عروسُ عروبتكم.» وساروا عبر الشوارع الرئيسة ليتجاوز عددُهم الـ ٢٠٠٠. أما هتافاتاتهم فقد برز بينها «لا سلام ولا تطبيع»؛ «يا شارون اسمعْ اسمعْ/ الشعب العربي ما بيركَعْ » ولوحظ في هذه التظاهرة مشاركةُ ممثلي الحزب الشيوعيّ الفيصليّ، والعديد من الشخصيّات المستقلة، إضافةً إلى عدد كبير من المعتقلين السابقين الذين تَزْخر بهم سلميّة.

دير الزور

في دير الزور، كانت أنشطةٌ أهليّةٌ مستقلّة ومتعددة قد تمّت خلال العام الفائت لدعم الانتفاضة، أبرزُها جمعُ تبرعات قُدّرتْ بسبعة ملايين ليرة سوريّة، وذلك قبل أن تَظْهر اللجان الرسميّة ومؤخّرًا خرجتْ بعد ظهر ٤/٢٢ مسيرةٌ مستقلّةٌ وصامتة، ضمت ما يربو على خمس مئة مشاركة ومشارك من عدة أجيال في مقدمة المظاهرة، حمل اثنا عشر شاباً علمًا كبيرًا لفلسطين، وارتفع صوتُ أغانٍ مسجّلة عن الانتفاضة وفلسطين. كما برزتْ لافتات: «النصر للانتفاضة والخزي لأمريكا والصهيونية»؛ و«رفعُ الحصار عن العراق ودعمُ الانتفاضة مطلبان شعبيّان عربيّان » ولوحظت مرافقةُ عناصر أمن الدولة لها، وحرصُهم على تأمين مرورها في الشارع العامّ وانتهاءً بتكية الراوي

الرقّة

في الرقة، خرج المحامي عبد الله خليل والطبيب محمد الحاج صالح وقد ألصقا فميْهما، ورفعا لافتاتٍ تنعَى العجزَ العربيَّ. ثم سارا مع بعض الشبّان في تظاهرة صغيرة عَبَرَت الأسواقَ الشعبيّةَ، فانضمّ إليها عشراتُ المواطنين، وأدت إلى فتح حوار جادّ وإيجابيّ بين المذكوريْن وأمينِ فرع حزب البعث وقد تبع ذلك لقاءٌ واسعٌ مماثلٌ مع مثقفي المحافظة، شَاركتْ فيه قيادةُ الفرع ومحافظ الرقّة.

ثم تتالت أنشطةٌ أخرى، كان من بينها إقامةُ معرض رصيفٍ لعشرة من فنّاني الرقّة في الشارع الرئيسيّ، وبجوار المركز الثقافيّ. أما أبرزها فكان قيام مظاهرة مستقلة لدعم الانتفاضة يوم ٤/١٠، ضمت ممثِّلي الطيف الديمقراطيّ المعارض، وشارك فيها حوالى ألفيْ متظاهر

فلسطين أخرجت السافرات والمحجّبات في تظاهرة واحدة

ومتظاهرة. إضافةً إلى ذلك، كان لافتًا خروجُ تظاهرة صغيرة مساء ٤/٢٢، تميّزتْ بكون أغلبيتها من الأطفال دون العاشرة، وبحملهم رموزًا للإنجيل والمصحف مع خارطة كبيرة لفلسطين.

استنتاجات أوّلية

١ ـ قد تبدو التعبيراتُ التي سبق عرضُها محدودةً ورمزيّةَ التأثير، ولاسيّما أنّ حجم أكبر تظاهراتها في دمشق لم يتجاوز عدةَ آلاف، في حين أنها عاصمةٌ يقطنها أكثرُ من أربعة ملايين نسمة. لكنّ العارف بالشارع السوريّ وما انتابه خلال العقود الماضية لا بدّ أن يُقرّ بأهميّة تلك التعبيرات. كما تكفي مفارقةُ أنّ المسيرات المعلّبة، التي تجاوزت المليونَ أحيانًا، كانت تبدأ ضخمةً وتصبح هزيلةً أثناء سيرها، بينما التظاهراتُ المشارُ إليها أعلاه كانت تبدأ صغيرةً ثم تتنامى أثناء مسيرتها، بانضمام المتعاطفين معها، ومَنْ يكتشفون استقلاليتَها بعدَ كثيرٍ من الحذر والتشكيك.

٢ ـ إنّ التعبيرات المشار إليها أعادت إلى الشارع السوريّ شيئًا من حيويّة الستينيّات وذاكرتها الحماسيّة، بخلاف الإيقاع الرتيب للمسيرات الأبويّة خلال العقود الماضية. وانضافت إلى ذلك، بالطبع، تجديداتٌ فَرَضَها إيقاعُ العصر وتطوراتُه. فكنتَ ترى ممثّلي الأحزاب والتيّارات متوافقين ومتجادلين، وبخاصةٍ في الاعتصام اليوميّ الجاري في دمشق وإلى حدٍّ ما في حمص. وكنتَ ترى أيضًا الأصدقاءَ والعائلاتِ، بل والأجيالَ المختلفة، في تصالحٍ مخالفٍ للمألوف، ربما لأنّ الجميع في خروجهم الحرّ والمستقلّ إلى الشارع تمرّدوا على الأبويّة السياسيّة السائدة والمستقرة منذ عقود، فأصبحوا موحَّدين من جديد في موقع الـ «الأبناء الشياطين.»(١)

٣ ـ تأثير التقنيّات الجديدة. وقد تجلّى ذلك في الإصدار المتلاحق للبيانات والشعارات نظرًا لانتشارالكومبيوتر والطابعات، وكذلك تأثير الفضائيّات ومواقع الانترنت والهاتف الخلويّ، إضافةً إلى الاستخدام الكثيف لكاميرات التصوير والفيديو الشخصيّة، التي حاولتْ أن تعوِّض عن صمت الإعلام المحليّ والخارجيّ.

٤ ـ بروز أهميّة التنظيم والتنسيق بين التيّارات والرموز الناشطة. وهو أمر تمّ بصورة ناضجة وواضحة في بعض المواقع، ولكنْ حدثتْ درجات عفويّة وميدانيّة منه في مواقع أخرى.

٥ ـ طَرحت التجربةُ العمليّةُ لهذه التعبيرات العديد من الأسئلة النظريّة والعمليّة. كما أعادت اختبارَ القديم من هذه الأسئلة، سواء حول العلاقة بين القوميّ والقُطْريّ، وبين التحرر والحريّة، أو حول التراضي الميدانيّ بين القوى المختلفة.

٦ ـ لا شكّ أنّه كان للموقف الإيجابيّ والمنفتح للقيادة السياسيّة السوريّة من هذه التعبيرات أثرُه في ظهورها السلميّ والتوافقيّ. وهذا ما يعطي الأملَ في تطوير الحوار الوطنيّ، انطلاقًا من رؤيةٍ تفيد أنّ سوريا دولةٌ كلّ مواطنيها، علمًا أنّ الحزب الحاكم توجّه بدوره مؤخرًا إلى التعبير عن دعمه للانتفاضة بالإضافة إلى تعبيراته الرسميّة المعروفة. لكنْ يبدو أنّ هذا التوجُّه يفسَّر في التعبير عن نفسه بالاشتراك مع الآخرين والمباراة معهم في بعض المحافظات (كالرقّة)، وبممارسة أشكال متنوعة من التحدي والاستفزاز والإلغاء في محافظات أخرى (كحمص).

٧ ـ أخيرًا، إذا كانت الانتفاضة قد أسهمتْ في تحرير الشارع والإنسان العربيّ، فإنّه يبدو أنّ الربيعَ المتفتح مجدّدًا في سورية، والمتوافقَ وطنياً ومناخياً هذه المرة، لا يمكن إلاّ أن يندرج في هذا الإطار، على الرغم من كثرة الحواجز المتوقعة.

حمص

محمد نجاتي طيارة

باحث سوريّ. أعد كتاب **صورة رائد نهضويّ**، وشارك في كتابَي **الأحزاب والحركات القوميّة في الوطن العربيّ**، و**الديمقراطيّة وحقوق الإنسان في سوريا**. وهو عضو مؤسِّس في لجان إحياء المجتمع المدنيّ، وجمعية حقوق الإنسان، ومنتدى حمص للحوار.

١ ـ د. ياسين حاج صالح، «خروج من العزلة ـ يوم فلسطينيّ في دمشق،» **السفير** ٢٠٠٢/٤/٦.